

الاراضي الوطيئة و اسكنديناوه

استوجب طغيان البابا في الاراضي الوطيئة الاحتجاج منذ عهد مبكر جدا. فقبل عهد لوثر بسبع مئة سنة اُتهم البابا بالخيانة بلا خوف، وذلك على لسان اثنين من الاساقفة اللذين اذ كانا قد أرسلوا الى روما في سفارة عرفا الصفة الحقيقية « للبابوية المقدسة ». فقالا: ان الله « قد جعل ملكته وعروسه، الكنيسة، مؤونة فخمة ابدية لاسرتها ببائنة (مهر) لا تفنى ولا تتدنس وأعطاه اكليلا وصولجانا ابديين... وكل ما يعود بالريح تصديتُ له كاللص. لقد أقمت نفسك في هيكل الله، وبدلا من كونك راعيا فقد صرت ذئبا يفترس الغنم... أنت تريد أن تقنعنا بانك رئيس الاساقفة، لكنك تتصرف كما لو كنت طاغية... ومع انه ينبغي لك أن تكون عبد العبيد، كما تسمي نفسك، فانت تسعى الى ان تكون رب الارباب ... انك تجعل أوامر الله محتقرة... الروح القدس هو باني كل الكنائس في كل انحاء الارض... ومدينة الهنا التي نحن رعاياها تصل الى كل أقاليم السماء، وهي أعظم من تلك المدينة التي يسميها الانبياء القديسون بابل والتي تتظاهر انها الهية وتعد نفسها للسماء وتتشدق بان حكمتها خالدة، وأخيرا تدعي من دون سبب انها لم ولن تخطئ » (٢١٣).

ومن قرن الى قرن قام آخرون ليرددوا صدى هذا الاحتجاج. ثم ان أولئك المعلمين الاولين فيما كانوا يجوبون البلدان المختلفة باسماء متعددة وكانت لهم صفات المبشرين الولدنسيين وكانوا ينشرون في كل مكان معرفة الانجيل، تغلغلوا في داخل الاراضي الوطينة حيث انتشرت تعاليمهم بسرعة. وقد ترجموا التوراة الولدنسية شعرا الى اللغة الهولندية. وأعلنوا « ان فيها ميزة عظيمة، لا نكات وفكاهات وخرافات وأشياء تافهة ومخاتلات، بل كلام الحق، وانه بالطبع كانت توجد هنا وهناك لقمة يابسة، ولكن كان يمكن بعد ذلك ان تكتشف بسهولة زبدة وحلاوة كل ما هو صالح ومقدس في الكتاب». (٢١٤). هذا ما كتبه معتنقو الحق القديم في القرن الثاني عشر.

وهنا بدأت الاضطهادات البابوية، ولكن في وسط وقود النار والعذابات ظل المؤمنون يتكاثرون معلنين بكل ثبات ان الكتاب المقدس هو المرجع الوحيد الذي لا يخطئ في الدين، وانه « ينبغي الا يُكره أحد على الايمان بل يجب ربحه بالتبشير » (٢١٥).

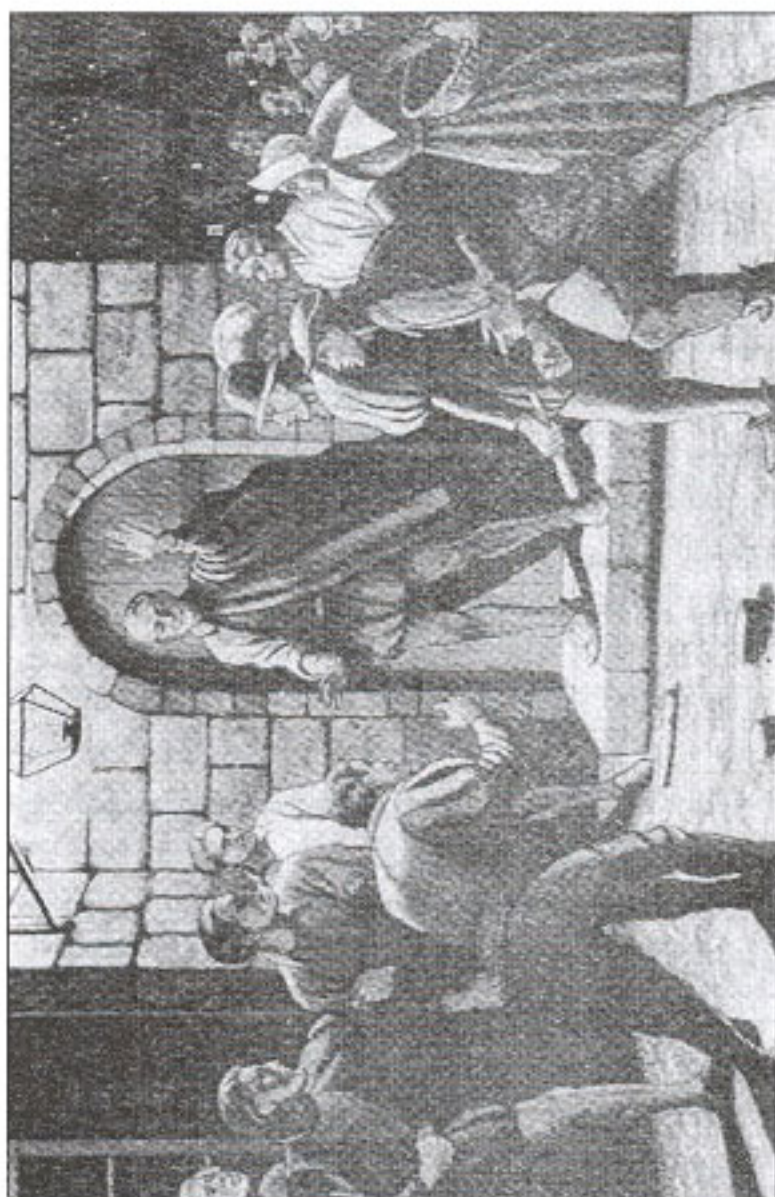
ولقد وجدت تعاليم لوثر تربة ملائمة في الاراضي الوطينة، فقام رجال غيورون أمناء ليبشروا بالانجيل. وقد أتى مينو سيمونز من إحدى مقاطعات هولنده. فاذ تلقى تعليما رومانيا كاثوليكية وسيم كاهنا كان يجهل الكتاب جهلا تاما، ولم يكن يريد أن يقرأه خشية أن يُغوى ويعتنق الهرطقة. وعندما افتحمت عقله الشكوكُ الخاصة بعقيدة استحالة القربان والخمر الى جسد المسيح ودمه فعليا. اعتبر ذلك تجربة شيطانية، فحاول بالصلاة والاعتراف ان يتحرر منها، ولكن عبثاً حاول. فانغمس في الملذات محاولا اسكات ضميره الذي كان يبكته ولكن من دون جدوى. وبعد وقت عكف على دراسة العهد الجديد، وهذا مع مؤلفات لوثر جعله يقبل الايمان المصلح. وفي اثر ذلك رأى في قرية مجاورة رجلا يُحكم عليه بالاعدام ويقطع رأسه لانه قبل المعمودية مرتين. وهذا قاده الى أن يدرس ما ورد في الكتاب عن المعمودية

الاطفال. فلم يستطع ان يجد برهانا عليها في كلام الله، ولكنه رأى انه في كل مكان كان يُطلب التوبة كشرط لقبول المعمودية.

فانسحب مينو من الكنيسة البابوية وكرس حياته لتعليم الناس الحقائق التي قد قبلها. وقام في المانيا والاراضي الوطية جماعة من المتعصبين ينادون بتعاليم سخيفة مثيرة للفتن تدعو الى انتهاك النظام واللياقة، وتنادي بالالتجاء الى العنف والثورة. وقد رأى مينو العواقب المخيفة التي لا بد أن تؤدي اليها هذه الحركات، فبكل جرأة جعل يقاوم التعاليم الخاطئة والتدبيرات الطائشة التي كان ينادي بها أولئك المتعصبون. ومع ذلك فقد أضل أولئك المتعصبون أناساً كثيرين ولكنهم عادوا فنبذوا تعاليمهم الوبيطة الشريرة. وكان لا يزال باقيا كثيرون من نسل المسيحيين القدامى الذين كانوا من ثمار التعليم الولدنسي. وقد خدم مينو بين هؤلاء الناس بغيرة عظيمة وبنجاح منقطع النظير.

ولمدة خمس وعشرين سنة ظل يسافر ويتنقل مع زوجته وأولاده متحملين المتاعب الجمة والعُسْر، وكثيرا ما تعرضت حياته للخطر. وقد قطع الاراضي الوطية وشمالى المانيا وهو يعمل بالاكتر بين الطبقات الفقيرة، وكان له تأثير واسع النطاق. ولانه كان بطبيعته فصيحاً وان تكن ثقافته محدودة فقد كان رجلاً موصوفاً بالاستقامة التي لا تلين ولا تتزعزع ووداعة الروح ورقة العادات وخلوص التقوى والغيرة المقدسة، وجاعلاً من حياته مثالا للتعاليم والوصايا التي علم بها، وهكذا ظفر بثقة الشعب. وقد تشتت اتباعه واضطهدوا وقاسوا الشيء الكثير، وارتكبوا بسبب تعاليم المونستريين المتعصبين. ومع ذلك فبفضل جهوده اهتدت جموع كثيرة من الناس الى الله.

لم تُقبل التعاليم المصلحة بالاجماع كما قبلت في الاراضي الوطية. وفي قليل من الاقطار احتمل معتنقو تلك التعاليم اضطهادات ارهيب مما احتمله اهل الاراضي الوطية. وفي المانيا لعن شارل الخامس الاصلاح وحرّم على الناس اعتناق مبادئه، وكان يريد بكل سرور أن يحرق بالنار كل من ينتمون اليه، لكنّ الامراء حالوا بينه وبين الطغيان. بيد أن نفوذه كان أعظم في الاراضي الوطية



المصلح الاسكندري

مما في بلاده، وقد توالى المنشورات الداعية الى الاضطهاد في تتابع وسرعة عظيمين. فكون الانسان يقرأ الكتاب المقدس أو يسمع تعاليمه أو يبشر به أو حتى يتحدث عنه كان كفيلا بان يوقعه تحت خطر الموت احتراقا. وكون الانسان يصلي الى الله في الخفاء أو يمتنع عن السجود أمام الايقونات أو يترنم بمزمور كان يستوجب الموت. بل حتى من كانوا يتركون اخطاءهم كانوا يدانون. فان كانوا رجالا كانوا يموتون قتلا بالسيف، أما النساء فكن يُدفنن حيات. وهكذا هلك آلاف من الناس تحت حكم شارل الخامس وفيليب الثاني.

وفي مرة أتى باسرة كاملة أمام محكمة التفتيش، وكانوا متهمين بالتخلف عن حضور القداس وإقامة العبادة في بيتهم. وعند فحص الابن الاصغر اذ سئل عما يفعلونه في الخفاء أجاب قائلا : « اننا نخر جاثين ونتضرع الى الله ان ينير عقولنا ويغفر خطايانا، ونحن نصلي لاجل مليكنا حتى يكون حكمه ناجحا وحياته سعيدة، ونصلي لاجل حكامنا حتى يحفظهم الله » (٢١٦). وقد تأثر بعض القضاة تأثرا عميقا، ومع ذلك فقد حكم على الاب وأحد ابنائه بالموت حرقا بالنار.

ايمان الشهداء

كان ايمان الشهداء موازنا ومساويا لغضب مضطهديهم وحنقهم. ففضلا عن الرجال ابدت النساء الرقيقات الضعيفات والعذارى الشابات شجاعة ثابتة ونادرة. « كانت الزوجة تقف الى جوار زوجها وهو يحترق بالنار، وفيما كان يقاسي العذابات كانت زوجته تهمس له بكلام العزاء او ترنم له زمورا لتسري عنه ». وكانت العذارى الشابات يرقدن في قبورهن وهن على قيد الحياة كما لو كن داخلات الى مخادع نومهن او يذهبن الى المشانق والنار وهن متسريلات بأبهى الحلل كما لو كن ذاهبات الى حفلة زفافهن » (٢١٧).

وكما في عهد الوثنية عندما حاول الوثنيون ان يلاشوا الانجيل فكان دم المسيحين هو البذار (٢١٨)، كذلك كان من نتائج الاضطهاد ان زاد عدد شهود الحق. فسنة بعد سنة كاد الملك يجن امام عزم الشعب الذي لا يقهر فظل ماضيا في اعمال القسوة، ولكن عبثا. واما تحت حكم وليم اورانج النبيل فنجحت الثورة في تحقيق حرية العبادة في هولندا.

وفي جبال بيدمونت وسهول فرنسا وشواطئ هولندا كان تقدم الانجيل موسوما بدم تلاميذه. اما في الاقطار الشمالية فقد وجد قبولاً ودخل دخولا سليما. فطلبة وتنبرج في عودتهم الى اوطانهم حملوا الايمان المصلح الى بلاد اسكنديناويا. وقد ساعدت كتب لوثر ايضا بعد نشرها على تعميم النور. وابتعد اهل الشمال البسطاء الجريئون عن المفاسد والفخفة والخرافات التي هي من صنع روما، ورحبوا بطهارة حقائق الكتاب المقدس المانحة الحياة وبساطتها.

المصلح الدانيمركي

كان تاوزن « المصلح الدانيمركي » ابن رجل فلاح. وقد برهن ذلك الصبي على ذكاء عقله ونبوغه. كان يتوق الى التعلّم لكن ظروف ابويه حرمتهم ذلك فدخل ديرا. هناك اكسبته طهارة حياته مع اجتهاده وولائه رضى رئيسه. وقد برهنت نتيجة الامتحان على موهبة تبشر بأنه سيسدي في المستقبل الى الكنيسة خدمات جليلة. وقد تقرر الحاقه باحدى جامعات المانيا او الاراضي الوطیئة. وأعطى ذلك الطالب الشاب الحق في اختيار المدرسة التي يريدتها بشرط واحد هو ألا يذهب الى وتنبرج. فالطالب المبعوث من قبل الكنيسة ينبغي الا يتعرض لسوموم الهرطقة. هذا ما قاله الرهبان.

فذهب تاوزن الى كولونيا التي كانت حينئذ ولا تزال الى اليوم معقلا حصينا من معقل البابوية. وسرعان ما اشمازت نفسه من تدين الأسانذة المتمزمت

الغامض. وفي ذلك الوقت حصل على مؤلفات لوثر فقرأها بدهشة وسرور. وكان يرغب كل الرغبة في ان يتمتع بنوال نصيب شخصي من تعليم ذلك المصلح، لكنه لو فعل ذلك لأسخط عليه رئيس ديريه فيُحرم على الانفاق عليه. لكنه عقد العزم، وبعد قليل سجل اسمه بين طلبة وتبرج.

عندما عاد الى الدانيمرك توجه الى الدير. ولم يكن احد يشك فيه الى ذلك الحين انه قد اعتنق مبادئ لوثر، وهو لم يُطلع احدا على سريرته، بل حاول من دون ان يثير تعصب زملائه ان يقودهم الى ايمان أنقى وحياء اقدس. ففتح لهم الكتاب المقدس وجعل يشرح لهم معناه الصحيح، واخيرا بشرهم بالمسيح على انه بر الخاطئ ورجاؤه الوحيد في الخلاص، فكان غضب رئيس الدير عظيما اذ كان يبني عليه آمالا كبارا كمحام ومدافع شجاع عن روما. فنقل من ديريه في الحال الى دير آخر وحُكم عليه بملازمته حجرته، وفرضت عليه رقابة شديدة.

ارتعب الاوصياء الجدد عندما اعلن رهبان كثيرون انهم قد اهدتوا الى البروتستانتية. فمن خلال قضبان حجرته كان تاوزن يرسل زملاءه بمعرفة الحق. ولو كان اولئك الآباء الدانيمركيون ماهرين في استخدام وسائل الكنيسة في معاملتها للهراطقة لما سمع احد صوت تاوزن بعد ذلك، ولكنهم بدلا من ان يقبروه في سجن تحت الارض طردوه من الدير. وقد امسوا عاجزين الآن، ذلك انه كان قد صدر مرسوم ملكي يؤمّن الحماية لمعلمي التعاليم الجديدة. وقد بدأ تاوزن يبشر، ففتحت له الكنائس وتقاطر الناس لسماعه. وكان آخرون يبشرون بكلمة الله وكتاب العهد الجديد الذي ترجم الى اللغة الدانمركية وانتشر في كل مكان. هذا، وان المساعي التي بذلها البابويون للقضاء على هذا العمل آلت الى نشره اكثر، وبعد قليل اعلنت الدانيمرك انها قد قبلت العقيدة المصلحة.

تقدم الاصلاح في السويد

وفي السويد ايضا حدث ان الشبان الذين كانوا قد نهلوا من النبع العذب في وتبرج حملوا ماء الحياة الى بلادهم ومواطنيهم، وكان من بين قادة الاصلاح في السويد شابان اخوان هما أولاف ولورنتيوس بيتري، ابوهما حداد من مدينة اوربيرو. هذان الشبان كانا قد تلقيا العلم على يدي لوثر وميلانكثون، وكانا مجتهدين في تعليم الناس تلك التعاليم التي تلقياها. ومثل المصلح العظيم اثار اولاف الشعب بغيرته وفصاحته، اما لورنتيوس فكان مثل ميلانكثون عالما ومفكرا وهادئا. كان كل منهما حارا في تقواه وحاصلا على معرفة البابويين على اشدها، فلقد اثار الكهنة الكاثوليك ذلك الشعب الجاهل المتعلق بالخرافات. فهاجم الرعايا اولاف بيتري مرارا، وفي بعض الاحيان كان ينجو بحياته بشق النفس. ومع ذلك فقد كان هذان المصلحان حائزين رضى الملك وحمايته.

غاص الشعب تحت حكم الكنيسة البابوية في اعماق الفقر وسحقه الظلم. كان الناس محرومين من الكتاب المقدس، واذ كانت ديانتهم عبارة عن بعض الرموز والطقوس التي لم تكن لتتير الذهن كانوا يعودون الى العقائد الخرافية والممارسات الوثنية التي كان يدين بها اسلافهم الوثنيون. وقد انقسمت الامة الى احزاب متضاربة زادت منازعاتهم وخصوماتهم من شقاء الجميع. وقد عقد الملك العزم على اجراء اصلاح في الدولة وفي الكنيسة فرحب بمساعدة هذين المصلحين المقتردين في حربه ضد روما.

ففي حضرة الملك وعظماء بلاد السويد دافع اولاف بيتري بمقدرته الخطابية عن تعاليم الايمان المصلح ضد ابطال البابوية. وأعلن ان تعاليم الآباء ينبغي قبولها على قدر مطابقتها للكتب المقدسة، وان تعاليم الايمان الجوهرية معروفة في الكتاب على نحو واضح بسيط بحيث يمكن ان يفهما كل انسان. لقد قال المسيح : « ... تعليمي ليس لي بل للذي ارسلني » (يوحنا ٧: ١٦). وقد اعلن بولس انه ان بشر بانجيل آخر غير ما قبله فليكن اثاميا (ملعونا)

(غلاطية ١ : ٨). ثم قال المصلح : « أذآ فكيف يتجرأ آخرون على أن يسنوا قوانين كما يروق لهم ويفرضوها على الناس كأنها ضرورة للخلاص ؟ » (٢١٩). ثم اعلن ان أوامر الكنيسة ليست ملزمة متى كانت متعارضة مع أوامر الله، ثم قدم المبدأ البروتستانتي العظيم وهو « أن الكتاب المقدس وحده » هو قانون الايمان والاعمال في الاراضي الوطنية واسكنديناوه.

ومع ان هذا النزاع اقيم على مسرح مغمور نسبيا فهو يرينا « نوع الرجال من كل الرتب الذين تكوّت منهم جيش المصلحين الذين لم يكونوا قوما اميين عديمي العلم ولا متعصبين لطائفة خاصة، صخابين أو محبين للجدال، كلا بل كانوا رجالا درسوا كلمة الله وعرفوا جيدا كيف يحسنون استخدام الاسلحة التي زودتهم اياها خزانة اسلحة الكتاب. وفي ما يختص باللوزعية كانوا في طليعة جيلهم. وعندما نحصر انتباهنا في المدائن المتألقة مثل وتبرج وزيورخ، وننظر الى الاسماء الشهيرة كلوثر وميلانكتون وزوينجلي واكلولامباديوس، فقد يقال لنا ان هؤلاء كانوا قواد الحركة، ونحن بالطبع ننتظر ان تكون لهم قوة هائلة وادراك واسع المدى، اما اتباعهم فلم يكونوا مثلهم. حسنا فلنلتفت الى مسرح السويد المغمور والى دينك الاسمين المتواضعين اي اولاف ولورنتيوس بيتري — من الاساتذة الى التلاميذ — فما الذي نجده؟... نجد اساتذة ولاهوتيين اقوياء، رجالا اتقنوا كل نظام حق الانجيل وانتصروا انتصارا سهلا على سفسطات الاسكلأيين واصحاب المقامة في روما » (٢٢٠).

السويد تؤيد الاصلاح

كان من نتائج هذه المجادلة ان ملك السويد قبل الايمان البروتستانتي، وبعد وقت قصير قرر المجلس الوطني اعتناقه. كان اولاف بيتري قد ترجم كتاب العهد الجديد الى اللغة السويدية، وبناء على رغبة الملك شرع الاخوان في ترجمة الكتاب المقدس كله. وهكذا فلأول مرة حصل شعب السويد على الكتاب المقدس في لغتهم الوطنية. وقد صدر أمر من المجلس يفرض على

خَدَمَة الكلمة في كل أنحاء المملكة أن يشرحوا الكتاب المقدس، وعلى الاولاد أن يتعلموا في مدارسهم قراءة الكتاب.

وبكل ثبات وتأکید طردت أنوار الانجيل المبارك ظلمات الجهالة والخرافات. واذ تحررت الامة من المظالم البابوية وصلت الى قوة وعظمة لم تبلغهما من قبل. وقد صارت السويد معقلا من معاقل البروتستانتية. وبعد ذلك بقرن من الزمان، في وقت محنة وخطر عظيمين، فان هذه الدولة التي كانت الى ذلك الحين صغيرة وواهنة هي الوحيدة في أوروبا التي مدت يد العون الى المانيا فانقذتها في حرب الثلاثين سنة المخيفة. كانت كل دول شمالي أوروبا مهددة بخطر العودة للخضوع لطغيان روما، لكن جيوش السويد هي التي أعانت المانيا لتكر على القوات البابوية وتحصل على التسامح مع البروتستانت – الكلفنيين واللوثريين سواء بسواء – وتستعيد حرية الضمير للممالك التي قبلت الاصلاح.